ادب الاقتضاء و استنجاز الحوائج
مدلولاتـه الخلقية في الشعر الاموي

الدكتورة بشرى محمد علي الخطيب (*)

الاقتضـاء فـي اللغـة هو طلـب انجاز الحوائـج و اتمامهـا و تنفيذهـا باحكـام واتقـان (١) الـى اهلهـا مـن ذوي المـروءة و الكـرم باسلوب مهـذب لطيـف يحقـق لصاحبه غايته و يصل به الـى هدفـه (وحسـب الشاعر كمـا يقـول ابـن رشـيق ان يكون مدحه شريفا و اقتضاؤه لطيفا فان الاقتضـاء الخشـن ربمـا كـان سـبب المنـع والحرمان وداعية القطيعة والهجران ، والاقتضاء كما يقول ابن رشيق طلب حاجـة وباب التلطيف فيه اجود ومن احسن شواهد الاقتضاء في رأيه ما قاله اميمة بن ابي الصلت لعبد الله بن جدعان :

أأذكر حـاجتي ام قد كـفاني حـياؤك إن شيمتـك الحـياء
وعلمك بالحقوق وانـت فرع لك الحسب المهذب و السناء

فهويرى ان هذاالاقتضاء يلين الصخرويستنزل القطر و يحط العصم الى السهل (٢) .

فالاقتضاء خلق وتهذيب وشواهده كثيرة في مختلف اغراض الشعر كالمدح والفخر والهجاء والغزل ، وكلها تعبر عن اصالة الشخصية العربيـة فـي الكـرم والمروءة والتهذيب عند السائل أي طالب الحاجة والمسؤول أي المقصود لتحقيقها،

(*) أستاذة اللغة العربية المساعدة في قسم اللغة العربيـة – كليـة الاداب / جامعـة بغداد .

(١) المحيط ج ٤ / ٣٧٩ ، معجم مقاييس اللغة ، ج ٥ / ٩٩ (القاف والضاد اصل صحيح يدل على احكام امر واتقانه ونفاذه لجهته) .

(٢) العمدة . ج٢ / ١٥٨ (باب الاقتضاب والاستنجاز) .

حيث يصفه الشعراء بالاريحية كما نقرأ لزهير بن ابي سلمى [1] :

تـــراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي انت سائله

فالكريم الخلق هو الذي يهش للمعروف وفعله سواء كان عطاء ماديا ام معنويا و في هذا يقول الرسول (ص) : [اطلبوا الحوائج الى حسان الوجوه فأن حسن الصورة اول نعمة تتلقاك من الرجل] [2] . وقالوا ايضا : [فوت الحاجة خير من طلبها الى غير اهلها] [3] ولهذا يمدح الكريم بتلبية الحاجات وعدم التلكؤ في قضائها ويهجى اللئيم بالتباطؤ عن قضائها . ومن جميل ما قيل في المدح بهذا المعنى قول زياد الاعجم وهو من الشواهد المتميزة في رأي ابن قتيبة :

سألناه الجزيل فما تلكأ واعطى فوق منيتنا وزادا

مرارا ما اعود اليه الا تبسم ضاحكا وثنى الوسادة [4]

فتلبية الحاجات و انجازها بسرعة مما يمدح به الرجل الكريم ، و في هذا المعنى نقرأ قول الفرزدق و هو يمدح رجلا يدعى تميم بن زيد بكرم الخلق و سرعة اجابة دعوة المحتاج كأنه في سرعته نصل السيف الذي سلّ من غمده :

تميم بن زيد قد سألتك حاجة لتجعله من بعض ما كنت لي تهدي

وكأن تميم لي اذا ما دعوته اجاب كنصل السيف سلّ من الغمد [5]

و تلبية الحاجات من مفاخر العرب كما نقرأ قول عبد الله بن ثعلبة و هو يفخر باسراعه الى قضاء الحوائج :

---

(١) شرح ديوان زهير ص١٤٢ . وفي هذا المعنى انظر حماسة ابى تمام ج ٢ / ١٩ :

و انك لا تدري اذا جاء سائل أأنت بما تعطيه ام هو أسعد

(٢) عيون الاخبار ج٣/١٣٣(كتاب الحوائج - العقد الفريد ج١/٢٤٠ .

(٣) العقد الفريد ج١/٢٤٠ .

(٤) شعر زياد الاعجم ص٧٠،عيون الاخبار ج٣/١٢٠ .

(٥) ديوان فرزدق ج١/١٦١ .

انـي اذا نـادى المـنادي ليلـة احـدى ليال الدهر لم اتعلل
اسعى اليه ولا يراني قـاعدا بين القعود مع النساء العزّل
فلعـل ما ادعي لما انا فاعل ولم الحيـاة اذا امرؤ لم يفعل [١]

والتباطؤ عن تلبية الحاجات من صفات اهل اللـؤم والبخـل ونجد العـرب يحجمـون عن اقتضاء اللئيم وفي ذلك يقول الشاعر :

لا تطلبن الى لئيم حاجة واقعد فانك قائما كالقاعد [٢]

فسؤال اللئيم مرفوض اذن لانه محدث نعمة ولهذا يؤخر قضاء الحوائج فيصبح بذلك موضع هجاء الشعراء كما نقرأ لامرأة من ولد حسان بن ثابت :-

سل الخير اهل الخير قدما و لا تسل
فتى ذاق طعم العيش منذ قريب [٣]

و يؤكد الطرمـاح فـي استفهامه الهجـائي السـاخر معنـى رفض تـأخير قضـاء الحوائج فيقول :

الحسن منزلتي تؤخر حاجتي ام ليس عندك لي بخير مطمع [٤]

اما الاخطل فيهجو خليل المرأة التي يتغزل بها بانـه بعيد عن المروءة بطـيء عن اجابة دعوة المحتاج فيقول :

فلاعيب فيها غير ان خليلها اذا القوم هشوا للمروءة زمـح
بطيء الى الداعي قليل فناؤه اذا ما اجتداه سـائل يتكلـح [٥]

---

(١) حماسة الخالديين ج١/٧٦ وهو من الشواهد المختارة في هذا المعنى .
(٢) عيون الاخبار ج٣ /١٣٣ .
(٣) م . ن .
(٤) عيون الاخبار ج٣/١٥٠ ، كالعقد الفريد ج٣/٢٣٠ .
(٥) شرح ديوان الاخطل التغلبي ص٦٣١ . زمح : لئيم ذميم . يتكلح : يتعبس . قليل فناؤه : لايغني ولايفيد في مقام البطولة والشجاعة . وانظر : في المعنى نفسه ايضا شرح ديوان الاخطل ص٥٦٥ الفخر بضياء الحوائج ، ص٥٤٣ الفخر بالعطاء وتلبية الحوائج .

و تنعكس هذه الصورة في المدح و الفخر فترى الممدوح مندفعا امام الحوائج كريما في قضائها سعيدا بفعل الخير يرى طالب الحوائج ذا يد عليه بطلبه كما نقرأ لعبد العزيز بن مروان : [اذا امكنني الرجل من نفسه حتى اضع معروفي عنده فيده عندي اعظم من يدي عنده] و انشد لابن عباس :

وكان له فضل عليّ بظنه بي الخيراني للذي ظن شاكر [١]

وهل ابلغ ان يعد صانع المعروف من يقصده لحاجة ذا يد وفضل عليه اعظم من معروفه و فضله هو ، مما يمثل قمة الخلق العربي الاصيل و هذا ما عبر عنه احد الشعراء :

وانك لا تدري اذا جاء سائل أأنت بما تعطيه أم هو أسعد [٢]

و سرعة قضاء الحوائج من القيم الخلقية التي يمدح بها اهل الكرم و في ذلك نقرأ ما قالته ليلى الاخيلية في رثاء توبة و تأبينه :

فتى ينهل الحاجات ثم يعلها فيطلعها عنه ثنايا المصادر [٣]

فهو لا يكتفي بقضاء حاجة واحدة بل يتبعها باخرى دون تردد كمن يشرب علا بعد نهل وهي صورة فنية جميلة ، ومثلها في الفخر بهذا المعنى نفسه ايضا نقرأ :

وارضع حاجات بلبان اخرى كذاك الحاج ترضع باللبان [٤]

فحاجات البشر متواصلة و هي ترضع في منهل واحد و هي مستمرة ما دامت الحياة قائمة :

متى تنقضي حاجات من ليس صابرا على الحاجة حتى تكون له اخرى [٥]

---

(١) عيون الاخبار ج٣/١٣٣ ، العقد الفريد ج١/٢٣٠ .

(٢) حماسة ابي تمام ج٢/١٩ باب الادب وفي هذا المعنى ايضا انظر : شرح ديوان الاخطل ص٥٦٥ ، ص٦٤١، ديوان الامعاني ج١/ ١٦٦ في مدح يزيد ابن المهلب حيث يجمع الشاعر بين لطيف الاستصلاح وادب السؤال لرسم صورة رائعة للممدوح الكريم .

(٣) ديوان المعاني ج١/٤٤ .

(٤) ديوان المعاني ج١/٤٤ .

(٥) العقد الفريد ج٣/١٣٨ .

فالرغبة في صنع المعروف و اتمامه يجعل صاحبه محمودا امام الله و الناس و يستحق الشكر و الثناء . قال الرسول (ص) : [اذا اردتم ان تعلموا فالعبد عند الله فأنظروا ماذا يتبعه من حسن الثناء] (١) . و في هذا المعنى نقرأ قول الحطيئة وهو من ابيات الحكمة والمثل :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس (٢)

وقد يفوق فيض كرم الممدوح بلاغة الشعراء في التعبير عنه و شكر صاحبه والثناء عليه مما يجعلهم في حيرة امام ذلك الخلق الكريم وهو ما عبر عنه ابن زبيد الطائي :

اذا كان شكري دون فيض بنانه وطاولني جدودا فكيف احتياليا (٣)

فالشكر على المعروف وحمد صاحبه يمثل الاخلاق العربية الحميدة كما يؤكد ايمان العبد بربه و شكره على نعمته . يروى ان رجلا دخل على قتيبة بن مسلم فقال له : اتيتك في حاجة رفعتها الى الله قبلك فأن تقضها حمدنا الله و شكرناك ، وان لم تقضها حمدنا الله وعذرناك . وقال له في خبر آخر : [اني اتيتك في حاجة فأن شئت قضيتها و كنا جميعا كريمين و ان شئت منعتها و كنا جميعا لئيمين] (٤) فقضاء الحوائج هو من فضل الله تعالى الذي ينعم به على عبده و لهذا نقرأ عن مروان بن الحكم عند طلب الحاجة اليه كانت رغبته في الانعام فوق رغبته في الشكر و حاجته الى قضاء الحاجة اشد من حاجة صاحب الحاجة (٥) .

---

(١) عيون الاخبار ج١٥٨/٣وفي المعنى نفسه انظرقول عمران بن حطان،المصدرنفسه ج١٥٩/٣

(٢) ديوان الحطيئة ص٢٨٤ .

(٣) شعر ابي زبيد الطائي ص١٤٢، النص من مختارات الخالديين في الاشباه والنظائر ج١٨٢/١ . ويرى الخالديان انه من المصوص الجيدة في معنى الشكر على النعمة وقد تجاذبه جماعة من الشعراء .

(٤) عيون الاخبار ج١٢٧/١ .

(٥) العقد الفريد ج٢٣٠/١ .

وقضاء الحوائج هو من صنيع للمعروف الذي يقي مصارع السوء و يورث الغنى، قال معن بن زائدة : [ما سألني احد قط حاجة الا رأيت الغنى في قفاه . و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يرد ذا حاجة الا بها او بميسور من القول[1] . و كان (ص) اذا سأل ما يجد اعطى و اذا سأل مالا يجد قال يصنع الله [2] . ولعل الاقتداء بالرسول الكريم (ص) في خلقه الكريم افضل ما يتمم به المسلم ايمانه وتعامله مع الناس .

فأقتضاء الحوائج اذن ادب اجتماعي له اصوله التي تفترض في صاحبه اختيار الوقت المناسب و الشخص المناسب الذي يصون وجه السائل و كرامته عن ذل السؤال [3] . و قديما قالوا : [لا تطلبوا الحوائج في غير حينها و لا تطلبوها من غير اهلها فأن الحوائج تطلب بالرجاء و تدرك بالقضاء] [4] . لهذا اوصى الامام علي (رض) من يقصده لحاجة قائلا : [من كان له اليّ منكم حاجة فليرفعها في كتاب لأصون وجوهكم من المسألة] [5] .

كما ان اقتضاء الحوائج خلق ديني قويم كما مر بنا و لهذا كانوا يستفتحون حوائجهم بركعتين يقولون فيهما : [اللهم بك استنجح و بأسمك استفتح و بمحمد نبيك اليك اتوجه ، اللهم ذلل لي صعوبته و سهل لي حزونته ، و ارزقني من الخير اكثر مما ارجو ، و اصرف عني من الشر اكثر ممالخاف .. الخ][6] .

---

(١) عيون الاخبار ج ٣ / ٣٩ .
(٢) م . ن ج ٣ / ١٣٧ .
(٣) عيون الاخبار ج٣ /١٨٩ ، عن عمر(رض) قوله : (حرفة يقال فيها خير من مسألة الناس) .
(٤) عيون الاخبار ، ج ٣ / ١٢٠ ، العقد الفريد ، ج١ / ٢٤٠ .
(٥) العقد الفريد ، ج ٦ / ٢٣٨ .
(٦) م . ن، ج ١ / ٢٤٠ .

والاقتضاء الحسن المهذب يسميه القدماء لطيف الاستمناح ، و يرون انه سبب النجاح في تحقيق المطالب وقد افردت امهات الكتب ابوابا خاصة لهذا المعنى[١].

ومن لطيف الاستنماح ما قاله رجل لعبد الله بن مروان يقتضيه حاجة : [اشكو اليك الشرف يا أمير المؤمنين ، فقال : وكيف ذلك ؟ فأجابه : نسأل ما لا نقدر عليه ، ونعتذر فلا نعذر ، فقال الخليفة : ما أحسن ما استنمحت واعتررت أي طلبت معروفا [٢] . ولطيف الاستماح كما يقول القدماء سبب النجاح ، والانفس ربما انطلقت وانشرحت للطيف السؤال ، وانقبضت وامتنعت بجفاء السائل [٣] .

ومن لطيف الاستماح ما قالته تلك العجوز لقيس بن سعد اشكو اليك قلة الجرذان. فقال :ما احسن هذه الكناية املئوا بيتها خبزا ولحما وسمنا وتمرا [٤] .

ولا شك ان هذا الاسلوب المهذب غير المباشرفي الطلب والذي يستخدم الكناية المجاز يعكس صورة رائعة للخلق العربي الاصيل .

ومما يروى من طريف الاستماح ما قاله نصيب الشاعر للخليفة عمر بن عبد العزيز :[يا أميرالمؤمنين كبرت سني ورق عظمي وبليت ببنيات نفضت عليهن من لوني فكسدن] فرق له ووصله [٥] . ورأى زياد على مائدته رجلا قبيح الوجه كثير الاكل فقال له : كم عيالك ؟ قال : تسع بنات . قال : اين هن منك ؟ قال : انا اجمل منهن وهن آكل مني، قال : ما أحسن ما تلطفت بالسؤال وفرض له واعطاه [٦] .

---

(١) عيون الاخبار ، ج ٣ / ١٠٠ (كتاب الحوائج) ، العقد الفريد ، ج١ ، ص٢٣٠ (كتاب الزبرجد في الاجواد ، العمدة ، ج ٢ / ١٥٨ (باب الاقتضاء والاستنجاز) .

(٢) العقد الفريد ، ج ١ / ٢٥٤ .

(٣) م . ن ، ج ١ / ٢٥٤ .

(٤) م . ن ، ج ١ / ٢٥٣ .

(٥) عيون الاخبار ، ج ٣ / ١٢٩ .

(٦) م . ن ، ج ٣ / ١٣٣ .

وتلبية الحاجات تمثل قيمة دينية وخلقية وهي تسعد اهل المروءة و الفضل والدين . عن الحسن (رض) قال : [لأن اقضي حاجة لاخ احب الي من اعتكف سنة] [1].

اما اللئيم فيفزعه طلب المعروف و يبهره طلب البذل والعطاء ، والكريم يسعده الكرم ويهش لفعله . وقد رسم لنا الاخطل صورة طريفة بهذا المعنى فقال :

ان اللئيـــم اذا ســـألت بهرته ... وتـرى الكـريم يراح كالمختال

واذا عدلت به رجالا لم تجد ... فيض الفرات كراشح الاوشال [1]

فالكريم تهزه اريحية الكرم و اللئيم يثقله المعروف و الكرم . و بهذا لا يمكن المساواة بينهما ، فرجل الكرم لا يعادله احد كما لا يمكن مساواة من يرشح عطاؤه كأنه الماء القليل الناضب بمن يفيض معروفه فيضا كماء الفرات المتدفق .

اما الحطيئة فقد رسم صورة طريفة لاعرابي بخيل طرقه محتاج فكان كالحجر الاصم الاملس ، و تجاهل طالب الحاجة و تباطأ عنه و صمت حتى بدا كالميت الذي يوشك ان ينعي لانقطاع انفاسه مما دفع طالب الحاجة الى الاعتذار عن طلبه وعندها عادت اليه انفاسه و ابتسم مسترخيا :

كدحت بأظفاري و أعملت معولي ... فصادفت جلمودا من الصخر املسا

تشاغل لما جئت في وجه حاجتي ... وأطرق حتى قلت قد مات اوعسى

واجمعت ان انعاه حين رأيته ... يفوق فواق الموت ثم تنفسا

فقلت له لا بأس لست بعائد ... فأفرخ تعلوه الكآبة مبلسا [2]

ونلاحظ ان الشاعر رسم صورة هجائية ساخرة لذلك البخيل الذي امسك يده ونفسه عن تحقيق حاجات الآخرين و هي صورة هجائية قاسية يرفضها اهل

---

(١) م . ن . ج٣/١٧٥ .

(١) شعر الاخطل ص٢٥٠ ، وانظر : أيضا المعنى نفسه ديوانه ص٥٤٣ ، ص٥٦٥ .

(٢) ديوان الحطيئة ص٢٨٢ ، عيون الاخبار جـ ٣/١٥٠ من النصوص المختارة عند ابن قتيبة في هذا المعنى .

المروءة و الكرم ، يقول أسماء بن خارجة : [ما احب ان ارد احدا عن حاجة لانه لا يخلو ان يكون كريما فأصونه او لئيما فأصون نفسي منه] [1] ، و صيانة النفس هي بعدم تعريضها للهجاء و السخرية كما مر بنا في شعر الحطيئة وهو يهجو بخيلا ، وقد مرّ بنا أن صنع المعروف يجعل صاحبه محمودا امام الله والناس [2] كما يقيه مصارع السوء [3] .

واقتضاء الحوائج كما رأينا ، يدخل في اغلب فنون الشعر و تتنوع اساليبه وصوره تبعا لاهمية الحاجة و الحاحها على نفس الشاعر او طالبها ، فضلا عن المقصود لتحقيقها من اهل الفضل و الكرم من الذين يتوجه اليهم الشاعر بحاجته طالبا انجازها .

و تتنوع الحاجات و تختلف بأختلاف اصحابها و اهدافها فقد تكون مادية تعتمد المال و العطايا و اسلوبها المدح او الفخر او الهجاء لمن يحجب المال عن طالبيه ، او يتلكأ في اعطائه لهم . و قد تكون معنوية مثل طلب الوفاء بالعهود وتحقيق اللقاء بين الاحبة كما في الغزل او اغاثة الملهوف او المستجير او اطلاق سراح سجين او فك اسره في المدح او الفخر يفعل ذلك و حتى في الرثاء في تأبين المرثي و تعداد حسناته ، و هي معان مألوفة عادية بصيغتها البسيطة المعهودة ولكنها عندما تعرض باسلوب فني جميل يجسد و يمثل اصالة الخلق العربي وصدق مروءته ، فأنها تكون في اجمل صورها و اساليبها و اصدقها في تجسيد تلك المعاني ، هذا فضلا عن تنوع اساليب عرض الحاجة بين استفهام او تمني او طلب مباشر او دعاء او شكوى الى غير ذلك مما سنعرض له في استعراضنا لصور

---

(١) عيون الاخبار ، جـ ٣ / ١٥٩ في فضل الشكر على النعمة .

(٢) قول الحطيئة : [من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس]

وهو من أبيات الامثال حيث جاء أوله مثل وآخره مثل ، أنظر : ديوان الحطيئة ص٢٨٤ .

(٣) عيون الاخبار جـ ١ / ١٢٧ .

الاقتضاء و ابوابه و اساليبه .

و يتفنن الشعراء في عرض حوائجهم بمختلف الاساليب التي تحقق لهم غايتهم كما يبدعون في تجسيد الخلق العربي القويم في رسم شخصية طالب الحاجة و المقصود لتحقيقها فالتأني و الصبر على الحاجات من المعاني الجميلة التي عرضها الشعراء و هي تؤكد اجمل القيم الخلقية و اصدقها . قال القطامي مرسلا قوله المشهور :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل [1]

فالتأني في طلب الحاجة اسرع الى تحقيقها و هذا ما عبر عنه جميل بثينة في الغزل :

اذا انت لم تظفر بشيء طلبته فبعض التأني في النوالة أنجح [2]

وفي تساؤل امية بن ابي الصلت الذي مرّ بنا سابقا تضمين لحاجته دون الافصاح عنها :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء [3]

وقديما قالوا : [من اخر حاجة فقد تضمن قضاؤها] [4] . و مثله قول جرير لعمر بن عبد العزيز مستخدما ايضا صيغة الاستفهام و التساؤل و هو يمدح الخليفة :

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني الذي بلغت من خبري [5]

فالشاعر هنا يقدم بين يدي حاجته دون الافصاح عنها و في ذلك نقرأ قول عمر بن الخطاب (رض) : [من افضل ما اعطيته العرب الابيات يقدمها الرجل امام

---

(١) ديوان القطامي ، ص٢٥ .

(٢) ديوان جميل بثينة ، ص٤٤ .

(٣) امية بن ابي الصلت حياته وشعره ، ص١٥٣ .

(٤) عيون الاخبار ، جـ ٣ / ١٤٩.

(٥) ديوان جرير ، ص ٢٧٤ .

حاجته فيستعطف بها الكريم و يستنزل بها اللئيم] [١] .

و قد يجمع الشاعر بين الصبر على حاجته مع الالحاح في طلبها كقول محمد بن بشير الخارجي :

لا تيأسن وان طالت مطالبة اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا

اخلق بذى الصبر ان يحظي بحاجته ومدمن القرع للابواب أن يلجا

وقديما قالوا : [طلب الحاجة بالحاح ادى الى نجاحها] [٢] . و قالوا ايضا : [من ادمن قرع الباب يوشك ان يفتح له] [٣] .

ويتمثل الصبر على الحاجة اكثر مع من يتردد في تحقيقها او يتلكأ فيكون موضع هجاء كما تقرأ لمحرز بن المكعبر الضبي هاجيا بني عدي الذين وعدوه المساعدة في استرجاع ابل له ثم اخلفوا وعدهم فساعدوه قوم اخرون فقال يهجوهم:

لهم ريثة تعلو صريمة امرهم وللامر يوما راحة فقضاء

واني لزاجيكم على بطء سعيكم كما في بطون الحاملات رجاء [٤]

ومن معاني الاقتضاء و قيمه الخلقية الرائعة و التي عرضها الشعراء في مختلف اغراض الشعر كتمان الحاجة و الصبر عليها ، و في الحديث الشريف : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فأن كل ذي نعمة محسود] [٥] . وتعد من الصفات المحمودة و المستحبة خاصة في الغزل ، كقول جرير :

فقد كنت اضمر حاجات واكتمها حتى متى طول هذا الوجد مكتوم [٦]

---

(١) الكامل ، جـ ١ / ٧٥ .

(٢) عيون الاخبار ، جـ ٣ / ١٢٠ ، العقد الفريد ، جـ ١ / ٢٤٠ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) حماسة ابي تمام ، جـ ٢ / ١٩١ (باب الهجاء) . ريثة : بطأ ، صريمة :عزيمة .

(٥) عيون الاخبار ، جـ ٣ / ١٢٠ ، (باب الحوائج) ، مختار الاحاديث النبوية ، ص٢٠ .

(٦) ديوان جرير ، ص ٥٢٦ .

فكتمان الوجد رغم عذاب صاحبه صفة ملازمة للعاشق تمنعه من التصريح بمعاناته و شوقه الى لقاء من يحب . كما نقرأ لجميل :

فلله عينا من رأى مثل حاجة كتمتها و النفس منها تململ [1]

و يلجأ الفرزدق الى تصوير ثقل كتمانه لاشواقه ولوعته و قسوته بأنها لا يمكن ان تتحملها جوانحه و لو وضعت على جبل المال جانباه من ثقلها :

وحاجة لا يراها الناس اكتمها بين الجوانح لو يرمى بها الجبل

لظل يحسب ان الارض قد حملت فتريه لما علا عرضيه الجبل[2]

و رغم قسوة هذا الكتمان و شدته الا انه من الحياء الذي هو شعبة من الايمان كما يمثل ذلك قول جرير :

خليلي ماذا تأمراني بحاجة و لولا الحياء قد اشاد بها صدري [3]

و كتمان الحاجة و خنقها بين الجوانح و كبتها و الصبر عليها رغم الحاحها على صاحبها تدل على صورة رائعة للخلق العربي القويم و قد يصل ذلك الكبت للحاجة مع عدم تحقيقها الى اليأس منها ، و يتضح ذلك جليا في مشاعر الحب والهوى التي يغمرها الحرمان و بخل الحبيبة او بعدها عمن تحب فيدفعها الى اليأس من اللقاء ثانية و تجديد الوصال ، كما نقرأ لجميل بثينة [4] :

فيا قلب دع ذكرى بثينة انها و ان كنت تهواها تضن و تبخل

وقد أيأست من نيلها و تجهمت و لليأس ان لم يقدر النيل امثل

فهو يسأل قلبه النسيان و السلوان لفقدانه الامل و يأسه من حبها و وصالها :

---

(١) ديوان جميل بثينة ، ص ١٦١ .

(٢) ديوان الفرزدق ، ج ٢ / ٢٤٥ ، (فتريه : جانباه) و مثله لجرير في كتمان الحاجة ديوانه ، ص ٧٧ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٢٧٧ ، اشاد بها : أي اظهرها .

(٤) ديوان جميل بثينة ، ص ١٥٩ ، و انظر ايضا : حماسة ابي تمام ، ج ٢ / ١٠٥ .

فأفنيت عمري بأنتظار نوالها و ابلت بذاك الدهر و هو جديد [١]

اما هي فبخيلة ترفض كل حاجات الهوى :

معارف للخود التي قلت اجملي الينـــا فقد اصفيت بالود اجمعا

فقالت افق ما عندنا لك حاجة و قد كنت عنا ذا عزاء مشيعا [٢]

فهو يطلب منها ان تعامله بصفاء و ود صادقين لانه اختصها بـوداده وحبـه و هـي دائمة الرفض لذلك :

فهل تجزيني ام عمرو بودها فان الذي اخفي بها فوق ما ابدي [٣]

فهذا الرفض للحب رغم صدقه و اخلاصه مع الكتمان و الصبر يدفعانه الى اليـأس من اللقاء فيتوجه بالدعاء الى الله تعالى ان يعينه على تحقيق امله اليائس:

فيارب حببني اليها و اعطني الـ مودة منها انت تعطي و تمنح

وإلا فصبرني و ان كنت كارها فاني بها يا ذا المعارج مولع [٤]

و يتوجه العرجي ايضا بدعواه الى رب العرش ليلطف بحاله من قسوة الفراق و الم الجوى :

يـا رب انـي قد شقيت بها فالطـف فأنك رب ذو لطف [٥]

اما عروة بن حزام فيتمنى قيام السـاعة حيث يحشـر النـاس امام بـارئهم ليلتقـي بعفراء التي حرم منها في الحياة الدنيا :

و اني لاهوى الحشر اذا قيل اننـي و عفراء يوم الحشر ملتقيان [٦]

---

(١) م . ن . ، ص ٦٢ ، و مثله في معنى اليأس ديوانه ص ٥٢٠ ، ص ٨٣ ، ص ٦٥ .

(٢) م . ن . ، ص ١٢٤ .

(٣) م . ن . ، ص ٧٧ .

(٤) م . ن . ، ص ١١٨ .

(٥) ديوان العرجي ، ص ٦٠ ، و انظر المعنى نفسه مجنون ليلى ، ص ٨ ، عمر بن ابي ربيعة ، ص ٥٩ ، النابغة الجعدي ، ص ١٥ .

(٦) شعر عروة بن حزام ، ص ١٥ ، ص ١٣ :

فيا رب انت المستعان على الذي تحملت من عفراء منذ زمان

و يلاحظ ان اقتضاء حاجة المحب في الغزل لا تجد لها صدى في قلب الحبيبة فهي بخيلة قاسية تخاف معصية الله خاصة اذا كانت متزوجة . كما نقرأ ما جاء على لسان ليلى الاخيلية و هي ترفض عروض الوصل :

و ذي حاجة قلنا لا تبح بها فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه وانت لاخرى صاحب و خليل [١]

و لا شك ان اثر الاسلام كان كبيرا في ادخال الطمأنينة الى نفوس المؤمنين فيمنعهم و يحميهم من المعصية ، خوفا من الله و ما ترفضه قيم الاسلام .

و يمثل توجه المسلمين بحاجاتهم الى بارئهم قبل البشر بشكل دعاء صادق اعظم القيم الانسانية و الدينية . كما نقرأ : [ان هشام بن عبد الملك قال لسالم بن عبد الله و دخلا الكعبة ، سلني حاجتك ؟ فأجابه : اكره ان أسأل في بيت الله غير الله . و شوهد رجل يسأل في الموقف فقيل له : أفي مثل هذا الموضع تسأل غير الله عز و جل] [٢] .

فالتوجه بالدعاء و التمني من اساليب الاقتضاء المتميزة خاصة في الغزل حيث يجتمع اليأس و الحزن في قلب المحب فيلجأ الى الله مستعينا به كما نقرأ لعروة بن حزام :

فيارب انت المستعان على الذي تحملت من عفراء منذ زمان [٣]

فيتمنى الاماني المستحيلة :

فياليت محيانا جميعا و ليتنا اذا نحن متنا ضمنا كفنان [٤]

وقد يتمنى لشدة يأسه الاماني الطريفة الغريبة مثل تمني قرب الحبيبة مع البلاء، وهو معنى اشترك فيه عدة من الشعراء كما يقول الخالديان ،

---

(١) شعر ليلى الاخيلية ، ص ٩٦ .
(٢) عيون الاخبار ، ج ٣ / ١٨٦ ، ج ٣ / ١٧٩ .
(٣) شعر عروة بن حزام ، ص ١٩ .
(٤) م . ن . ، ص ١٣ .

فمثلا يسأل بعضهم ربه ان يجعله و التي يحب جملين اجربين يطردان عن المياه ويقذفان بالحجارة عن المناهل ، و بعضهم يتمنى ان يكون غزالا و التي يهوى ظبية في برية خساف حيث لا يراهما احد و لا يسمع لهما خبر ، و هذا كما يقول الخالديان اصلح امنية من الاول [1] .

فمن تمنى ان يكون هو و حبيبه بعيرين اجربين يجمعهما التفرد و المرض والبعد عن الناس الافرزدق في قوله :

الا ليتنا كنا بعيرين لا نرد ... على منهل الا نشل و نقذف
كلانا به عر يخاف قرافه ... على الناس مطلي المشاعر اخشف
و ياليتنا كنا جميعا بقفرة ... من الارض لا يجتازها المتعسف
و لا زاد الافضلتان سلافة ... وابيض من ماء المدامة قرقف [2]

و هي من الطلبات المستحيلة و تعبر عن يأس صاحبها . و مثلها قول عروة بن حزام :

و ياليت انا الدهر في غير ريبة ... بعيران نرعى القفر مؤتلفان
يطردان الرعيان عن كل منهل ... يقولون بكرا عرة جربان [3]

اما كثير عزة فقد اشبع هذا المعنى و تمنى فيه الاماني الطريفة كما يقول الخالديان [4] :

الا ليتنا يا عز كنا ذي غنى ... بعيرين نرعى في الخلاء و نضرب
نكون بعيري ذي غنى فيضيعنا ... فلا هو يرعانا و لا نحن نطلب
كلانا به عرّ فمن يرنا يقل ... على حسنها جرباء تعدى و اجرب
اذا ما وردنا منهلا صاح اهله ... علينا فما تنفك نرمي و نضرب

---

(١) الاشباه و النظائر ، ج ٢ / ٨٤ .
(٢) الفرزدق ، ج ٢ / ٢٥ .
(٣) شعر عروة بن حزام ، ص ١٩ ، ص ٢٦ .
(٤) الاشباه و النظائر ، ج ٢ / ٨٤ ، ٨٥ ، و في المعنى نفسه ديوان جميل ، ص ٩٣ .

و تلك الحاجات اليائسة نابعة بلا شك من قلب عاشق يائس محروم يرفض ما حرمه الله لايمانه و طهره و تقواه ، فلا يجد وسيلة للقاء حبيبته الا بتلك التمنيات المستحيلة التي هي حاجات مستحيلة التحقق .

و مما يدخل في نطاق التمنيات اليائسة في قصص الحب و التي تقتضي حاجات بعيدة التحقيق وصية حميد بن ثور لرجلين ارسلهما ليبلغا رسالة الى الحبيبة البعيدة بأسلوب قصصي طريف . ارشدهما فيه الى التحايل و التنكر بهيئة تاجرين جاءا ليعرضا بضاعتهما حتى يصلا في النهاية الى الحبيبة و لكن طلبه لم يتحقق و فشل كما تذكر القصة :

خليلـــي انـــي مشتك ما اصابني لتستثبتـا مـا قـد لقيـت و تعلما
امليكمـا ان الامانـة مـن يخـن بهـا يحتمـل يوما من الله مأثما
فلا تفشـيا سري و لا تخذلا اخا ابثكمـا منـه الحديـث المكتمـا
لتتـخذا لـي بـارك الله فيكمـا الـى آل ليلـى العامرية سلما [1]

و لعمر بن ابي ربيعة كما يقول الخالديان بيتان في المعنى و لكنه يضيف ان عمـر اوضـح ان صاحبته التي اوصاها قضت حاجته و صاحبي حميد لم يقضياها [2] .

فبعثـنا طبـة محتـالـة تمـزح الجـد مرارا باللعب
ترفع الصوت اذا لانت لها وتراخى عند سورات الغضب [3]

فهذه المرأة كما يقول الخالديان بلغت بغير وصية كل ما في نفس صاحبها و هذان لم يبلغا مع وصية صاحبهما شيئا [4] .

---

(١) ديوان حميد بن ثور ، ص ٢٨ - ٣٠ . تراجع القصة كاملة و هي طويلة .
(٢) الاشباه و النظائر ، ج ١ / ٣٦ .
(٣) شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة ، ص ٣٨٦ .
(٤) الاشباه و النظائر ، ج ١ / ٣٦ .

و أقتضاء الحاجات كما قلنا مادي و معنوي و هو في المدح يمثل اوسع ابواب الاقتضاء حيث يلجأ الشعراء الى السادة لاعانتهم ماديا بالمال و العطايا او معنويا كالعفو عنهم او فك اسرهم او ضمان للحماية لهم بأعطائهم حق اللجوء اليهم وغير ذلك ، و يمثل موقف الشعراء في عرض حاجاتهم و اجابة السادة والامراء والملوك بقبول استمناحهم بوجوه كريمة صورة رائعة للخلق العربي الكريم . و قد يجمع الشاعر بين الكرم المادي و المعنوي في عطايا الممدوح كما في قول الفرزدق مادحا نصر بن سيار :

و انت امرؤ ان تسأل الخير تعطيه جزيلا و ان تشفع تكن خير شافع [1]

فالخير هنا هو العطاء المادي الجزيل و الشفاعة هي العطاء المعنوي الذي يتمثل بالمعونة وقت الشدة و السند وقت الحاجة مثل فك سجنه او اسره او اعطاءه الامان كقوله في مدح احد خلفاء بني امية :

و قد اتيتكم لآمن فيكم و اخو المخاوف عائذ بالاكرم

و جميع امة احمد يرجونكم لدفاع ما رهبوا و فك المغرم

و لقد اتيتكم بأعظم منة ولزمت بابكم و لست بمجرم [2]

فهو هنا يطلب الامان باللجوء الى حمى هذا الرجل الكريم الاصل ، كما يطلب فك دينه بمساعدته فجمع بين الطلب المعنوي و المادي .

و قد يطلب الشاعر في مدحه فك سجنه او اسره معا بأسلوب فيه استعطاف وترحم ، كما نقرأ للفرزدق في مدحه مالك بن المنذر يستعطفه فك سجنه بعد ان مضى عليه تسعون يوما في السجن :

يا مال هل لك في اسير قد اتت تسعون فوق يديه غير قليل

فتجز ناصيتي و تفرج كربتي عني و تطلق لي يداك كبولي [3]

---

(١) ديوان الفرزدق ، ج ٢ / ٦٣ .

(٢) م . ن . ج ٢ / ٤٩٣ .

(٣) ديوان الفرزدق ، ج ٢ / ١٢٢ .

ومن جميل الاقتضاء باسلوب الاستعطاف ما جاء على لسان ليلى بنت النضر بن الحارث في صدر الاسلام و هي تخاطب النبي (ص) و قد قتل اباها عند مصرفه من غزوة بدر :

أمحمد ها انت صنو نجيبة من قومها و الفحل فحل و عرق
ما كان ضرك لو منننت و ربما من الفتى و هو المغيظ المحنق

و يقال انه (ص) عندما بلغه طلبها العفو عنه قال : لو سمعت شعرها هذا قبل ان اقتله ما قتلته [1] .

وفي معنى طلب فك القيود و الاسر مع شكر صاحب المعروف و ثناءه ما جاء على لسان جرير و هو يمدح خالد بن عبد الله القسري :

و اني لارجو خالدا ان يفكني و يطلق عني مقفلات الجدائد [2]
فهل لابن عبد الله في شاكر له بمعروف ان اطلقت قبديه حامد

و من اجمل معاني الاقتضاء الفخر بأغاثة المستجير الذي ورد على لسان الفرزدق في فخره بكرم اجداده و اغاثتهم من يستجير بهم و هم تحت التراب وعانتهم ذوي الحاجات ماديا و حماية الضعيف معنويا :

فقالوا استغث بالقبر او اسمع ابنه دعانك يرجع ريق فيك الى الفم
فاقسم لا يختار حيا بغالب و لو كان في لحد من الارض مظلم
دعا بين آرام المقر ابن غالب واعاد بقبر تحته خير اعظم
فقلت له اقربك عن قبر غالب هنيدة اذ كانت شفاء من الدم

---

(١) الاشباه و النظائر ، ج ١٦٦/١ ، و هو من نصوص (الخالديان) المختارة في معنى طلب العفو .

(٢) ديوان جرير ، ص ١٧٩ .

الا هـل علمتـم ميتا قبل غالب قـرى منـة ضيفـا و لـم يتكلـم[١]

و لقد سارع الفرزدق بتلبية نداء ذلك المحتاج اللاجيء الى قبر ابيه فأعطاه مائة من الابل عندما سمع استغاثته .

و من مفاخر الفرزدق ايضا ما جاء على شكل قصة يروى فيها حكاية تلك المرأة الضعيفة التي لجأت مستغيثة و مستجيرة بقبر ابيه غالب لينقذ ابنتها الوليدة من ابيها القاسي الشرس الطباع عندما اراد ان يدفنها في طيات التراب و هي ابنة عام :

و فـارق ليل من نساء اتـت ابي تعالـج ريحا ليله غير مقمر
فقالـت اجر لي ما ولدت فانني اتيتك في هزلي الحمولة مقتر
هجف من العثو الرؤوس اذا ضغت
لـه ابنـة عـام يحطـم العظـم منكر
رأى الارض منها راحة فرمى بها الى خدد منها و في شر محفر
فقالـت لهـا نامـي فاني بذمتي لبنتـك جـار من ابيها القنور[٢]

---

(١) الفرزدق ، ج٢/٢٨٣ ، و في المعنى نفسه (اقتضاء مادي ، معنوي) انظر : ديوان جرير ، ص ١٨٢ (مادي) ، ص ١٧٩ معنوي ، ص ١٧٤ ، مادي في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز .

(٢) الفرزدق ، ج ١ / ٣٧٩ ، الفارق : الابل التي يأتيها المخاض فتفارق غيرها من الابل حتى تضع ، شبه المرأة بها لانفرادها . هولي الحمولة : أي ابنه هزلي . المقتر : المضيق عليها ، اراد زوجها . الهجف : الجافي . العثو : الكثير الشعر . ضغت : يكت . المنكر : ما ليس فيه رضي الله من قول او فعل . الخدد : القبر المحفور . القنور : الشرس .

و لعل استجابة الميت لطالب الحاجة و المستغيث او المستجير به صورة من اساليب المبالغة لتأكيد روح الكرم و المروءة في اخلاق اجداده [١] .

و من اساليب الاقتضاء الطريفة ما ورد على لسان جرير و هو يعرض حاجته المادية الشكوى المصحوبة بالسخرية و التهكم تتحفيف من مرارة الواقع وقسوته اولا و تسهيل عرض حاجته ثانيا ، في خطابه لاحد خلفاء بني امية :

اشكو اليك فاشكني ذرية ... لا يشبعون و امهم لا تشبع
كثروا علي فما يموت كبيرهم ... حتى الحمار و لا الصغير المرضع
واذا نظرت يريني من امهم ... عين مهججة و خد اسفع
واذا تقسمت العيال فوقها ... كثر الانين و فاض منها الدمع
رشني فقد دخلت علي خصاصة ... مما جمعت و كل خير تجمع [٢]

و هذا الاسلوب اللطيف في عرض الحاجة يذكرنا بتلك المرأة التي شكت قلة الجرذان في دارها كناية عن حاجتها للطعام و الدسم و هو من لطيف الاستماح كما مر بنا .

---

(١) و في هذا المعنى قصة المرأة التي عادت بقبر جده غالب لتستعيد ولدها الوحيد من ارض القتال لانها وحيدة . ج ١ / ٨٥ ، و كذلك العجوز التي عادت بقبر جده تطلب دية ولدها، ج ١ / ٣٦٧ و قد حقق الرزدق طلبهن جميعا فقال :

عجوز تصلي الخمس عادت بغالب
فلا و الذي عادت به لا اضيرها

و مثله في الفخر بقضاء الحوائج لعبد الله بن ثعلبة (حماسة الخالديين) ج ١ / ٧٦ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٣٥٢ ، و مثله ديوانه ، ص ٢٧٤ ، اقتضاء مادي اسلوبه الشكوى . ايضا في مدح عمر بن عبد العزيز ، و ديوانه ، ص ٤٩٣ في مدح الوليد بن عبد الملك اقتضاء اسلوبه الشكوى ايضا ، ص ٥٤ مدح و شكوى ساخرة .